

تشظّي الهوية في رواية "الأحول" لمهدي آل جابر

قراءة تحليلية في ضوء الصراع الفكري وأزمة الهوية العراقية خلال حقبة الثمانينيات

د. هبة قاسم بلجي

دكتوراه في الأدب الحديث ونقده

1

الملخص

يتناول هذا البحث ظاهرة تشظّي الهوية في رواية (الأحول) للروائي العراقي مهدي آل جابر (2025)، وهي رواية تصوّر مسيرة أسرة عراقية فقيرة من أبناء الطبقة الكادحة في مدينة الثورة ببغداد، إيّان الحقبة المشحونة بالحرب العراقية-الإيرانية (1980-1988) وقمع النظام البعثي لكل أشكال المعارضة. يسعى البحث إلى استجلاء مظاهر التشظّي الهوياتي على المستويات السياسية والفكرية والاجتماعية والنفسية والوجودية، عبر رصد الشخصيات الروائية وتحليل بنيتها الداخلية والعلائقية، مع التركيز على شخصية البطل المحوري "حكيم الأحول" بوصفه نموذجاً فريداً لهوية مركّبة تقاوم الانكسار رغم عواصف القمع والفقد والخوف.

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي مقترنا بالمنهج السوسيوثقافي. وقد خلص البحث إلى أن الرواية تقدّم نموذجاً أدبياً نادراً يشخص تشظّي الهوية العراقية في الثمانينيات على مستويات متعددة: هويات متصارعة تحت سقف الوطن والأسرة الواحدة، وصراع فكري بين الماركسية والدين والسلطة الاستبدادية، وتوتر طبقي بين الكرامة الإنسانية والإقصاء الاجتماعي، وأزمة وجودية بين الحب والمنفى والموت.

الكلمات المفتاحية: تشظّي الهوية، رواية الأحول، مهدي آل جابر، الهوية العراقية، الأدب العراقي المعاصر، الصراع الطبقي.

Abstract

This research examines the phenomenon of identity fragmentation in the novel *Al-Ahwal* (2025) by Iraqi novelist Mahdi Al-Jaber. The novel depicts the journey of a poor, working-class Iraqi family in Al-Thawra

City, Baghdad, during the turbulent era of the Iran-Iraq War (1980–1988) and the Ba'athist regime's suppression of all forms of opposition.

The study seeks to elucidate the manifestations of identity fragmentation on political, intellectual, social, psychological, and existential levels. This is achieved by observing the novel's characters and analyzing their internal and relational structures, with a particular focus on the central protagonist, "Hakim Al-Ahwal," as a unique model of a complex identity that resists shattering despite the storms of oppression, loss, and fear.

The research adopts a descriptive-analytical approach coupled with a sociocultural approach. It concludes that the novel presents a rare literary model that diagnoses the fragmentation of Iraqi identity in the 1980s across multiple levels: conflicting identities under the roof of a single nation and family, an intellectual conflict between Marxism, religion, and authoritarian rule, class tension between human dignity and social exclusion, and an existential crisis between love, exile, and death.

إشكالية البحث

ينطلق هذا البحث من تساؤلات محورية: كيف صوّرت الرواية حالة التشرذم الهوياتي في المجتمع العراقي خلال الثمانينيات؟ وما أبرز مظاهر الصراع الفكري داخل الأسرة الواحدة وكيف وظّف الكاتب تقنيات السرد لعكس هذه المظاهر؟ وكيف أثّرت الحرب العراقية-الإيرانية وسياسات القمع البعثية في تشكيل الهويات الفردية والجماعية بل وفي تفكيكها؟ وما الخيط الجامع الذي يتيح لشخصية الأحول أن تحافظ على تماسكها الداخلي رغم كل عوامل التشظّي المحيطة بها؟

أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في مقاربته رواية (الأحول) بعدّها وثيقة سردية نادرة تؤرخ للأحداث السياسية بطريقة غير تقليدية، وتصورّ تاريخاً للوجع الإنساني، وترسم الوعي الممزق تحت وطأة القمع. وتساعدنا هذه المقاربة على فهم أعمق لكيفية تعامل الأدب مع أنظمة القمع والحروب، وتتبع أثر ذلك في تشكيل الهوية السردية. كما تسلّط الضوء على مرحلة مصيرية في التاريخ العراقي الحديث تمتد تداعياتها إلى يومنا هذا، وتحمل رواية الأحول في طياتها جواباً أدبياً جريئاً على أسئلة لا يزال العراق يعيشها.

منهجية البحث

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي من خلال تحليل المحتوى السردى، ودراسة بناء الشخصيات، وتفكيك البنية الحوارية للأحداث. وأفادت الدراسة أيضا من المنهج السوسيوثقافي لفهم السياقات الاجتماعية والسياسية التي أنتجت النص وتفاعلت معه. كما استعين بمفاهيم نظرية معاصرة من حقل الدراسات الثقافية وعلم النفس الاجتماعي لتوصيف ظاهرة تشظي الهوية وتحليل تجلياتها في الخطاب السردى.

الدراسات السابقة

لم تسجل أي دراسة نقدية أو أكاديمية سابقة تناولت رواية (الأحول) لمهدي آل جابر بعينها، ويفسر ذلك بحدثة صدورها وعدم تراكم تداول نقدي حولها حتى تاريخ إجراء هذه الدراسة. وعليه فإن هذا البحث يمثل في حدود ما تيسر من مصادر أول معالجة مفصلة لهذا العمل الروائي. غير أن إشكالية تشظي الهوية في الرواية العراقية المعاصرة حقل بحثي نشط تراكت فيه دراسات عديدة يمكن أن تؤطر هذا البحث ضمن سياقها النقدي، ومن أبرزها:

تناولت زينة حمزة شاكر في بحثها "صراع الهوية في الرواية العراقية: رواية الحفيدة الأمريكية إنموذجا" (شاكر، 2020)، تجليات انشطار الهوية في الفضاء العراقي عبر تحليل خصائص الخطاب الأدبي النسوي، وخلصت إلى أن النص الروائي يرصد انفصام الشخصية بين الواقع والمرأة في أدائها الحياتي والذاتي، وأن أهم التغيرات التي أصابت الهوية جاءت نتيجة ظروف الحرب والنزاعات السياسية والطائفية والإرهاب والمنفى. وهي محاور تتقاطع مع ما خلص إليه البحث الحالي بخصوص تعدد مستويات التشظي في رواية (الأحول)، مع اختلاف الجنس الروائي (نسوي في مقابل ذكوري) وزاوية النظر إلى الحرب.

وفي دراسة أخرى بعنوان "التحولات السياسية وأثرها في أزمة الهوية وتأرجحها في رواية عشاق وفونوغراف وأزمة" (حسين، 2017) تناول الباحثون رواية لطيفة الدليمي، مركزين على تأرجح الهوية الإنسانية في الرواية العراقية الحديثة وانعدام الثبات والاستقرار فيها، وخلصوا إلى أن الفئة المثقفة في العراق أصبحت تتأرجح في هويتها فلم تعد تعلم إلى أي مكون تنتمي أو في أي مكان تجد ذاتها، نتيجة التحولات السياسية والاجتماعية العنيفة التي عرفها العراق عبر تاريخه. وتتقارب هذه النتيجة بشكل لافت مع ما تكشفه شخصية حكيم الأحول من تعدد انتماءات (الديني، الطبقي، المعرفي)، لكن البحث الحالي يخلص إلى أن هذا

التعدد قد يكون مصدر تماسك لا تفكك إن أحسن توجيهه، خلافا لما تنتهي إليه دراسة الدليمي من تشخيص أقرب إلى الانهيار الهوياتي الكامل.

كما تناولت دراسات أخرى متفرقة ظاهرة تشظي الهوية في الرواية النسوية العراقية بعامه، منها دراسة تتناول رواية "طشاري" لإنعام كجه جي وربطها بين تشظي الهوية والمنفى والموت عبر تقنيات سردية وجمالية متعددة. وتجمع هذه الدراسات على أن الحرب والمنفى والقمع السياسي هي العوامل الثلاثة الأساس المحرّضة على تشظي الهوية في الرواية العراقية المعاصرة، وهو ما يؤكّده البحث الحالي ويضيف إليه بعدا جديدا يتمثل في رصد آليات مقاومة التشظي عبر الكرامة والمعرفة والسخرية، لا الانصياع له بوصفه قدرا محتوما.

المقدمة

يعدّ سؤال الهوية من أعمق الأسئلة التي واجهت الفكر الإنساني عبر التاريخ، وتبلغ معالجته الأدبية ذروتها حين يعيش المجتمع منعظا حضاريا حادا يهزّ يقينياته ويعيد رسم خرائطه الثقافية والسياسية. ولا يختلف الحال بالنسبة إلى الرواية العراقية التي شهدت منذ ثمانينيات القرن الماضي تحولات جوهرية في بنيتها الموضوعية والأسلوبية، مدفوعة بثلاثي الضغوط: الحرب والاستبداد والإقصاء الطبقي. وقد وجد الروائي العراقي نفسه أمام مشهد بالغ التناقض: ثروة إنسانية هائلة في تجربة الألم، ومخاطر وجودية حقيقية في الكتابة عنها.

تأتي رواية (الأحول) للروائي مهدي آل جابر لتجسّد ملحمة إنسانية رصينة تكشف عن التشظي الذي أصاب الهوية العراقية في تلك المرحلة المفصلية. فعلى مساحة بضعة أمتار من مدينة الثورة ببغداد، يقمّ آل جابر عالما روائيا متكاملا تتشابك فيه خيوط الأيديولوجيا والعاطفة والخوف والكرامة والفلسفة، لترسم في مجملها صورة دقيقة لإنسان عراقي يبحث عن هويته وسط دوامة من التناقضات الخائقة. والجدير بالذكر أن آل جابر وثق الأحداث الخارجية، ونفذ إلى أعماق الوعي الداخلي لشخصياته ليقدم ما يمكن تسميته تشريحا نفسيا وفكريا لجيل كامل أحرق في أتون الحرب والاستبداد.

أبرز ما تمتاز به هذه الرواية أنها تنطلق من واقعة فريدة: شخصيتها الرئيسية (حكيم الأحول) شاب يعمل في الأشغال اليدوية، يرعى الحقائق ويوزّع البريد. لا يحمل سلاحا ولا ينتمي لحزب. ينظر إليه بسبب حوله الجسدي نظرة دونية.

لم يكن الاحول بطلا بالمعنى التقليدي كان يحمل في داخله ثروة معرفية وروحية استثنائية، ويرى بعينيه الحولالوين ما تعجز العيون السليمة عن رؤيته. يعدّ هذا التناقض بين الظاهر والباطن محركا رئيسا لإشكالية الهوية في الرواية.

الإطار النظري (تشظّي الهوية والصراع الفكري)

- مفهوم الهوية وأزمته في الفكر المعاصر

تعدّ الهوية في أبسط تعريفاتها منظومة الخصائص والسمات التي تميّز الفرد أو الجماعة عن غيرها، وتضفي على وجودهم تماسكا ومعنى (ضبع، 2006، صفحة 137). وهذه المنظومة حقل مفتوح تتشابك فيه الانتماءات المتعددة والمتضاربة أحيانا: الانتماء الطبقي والعائلي والديني والسياسي والثقافي والجغرافي. وقد مال التفكير الفلسفي الكلاسيكي إلى الافتراض بأن للهوية جوهرًا ثابتًا مستقرا، في حين انقلب المفكرون المعاصرون على هذا الافتراض ليبينوا بأن الهوية هي دائما في طور التكوّن والتشكّل والمفاوضة. فيعرف إريك إريكسون أزمة الهوية بأنها حالة من الارتباك والتمزق التي يمر بها الفرد حين تتعارض انتماءاته المتعددة وتتصادم، فيجد نفسه عاجزا عن الإجابة عن السؤال الوجودي الجوهرى: من أنا؟ وتتفاقم هذه الأزمة في الأوضاع الاستثنائية: الحروب والثورات والقمع السياسي، حيث تفرض على الفرد هوية واحدة قسرية وتجزم الهويات الأخرى (كوتيه و جي ليفين، 2021، صفحة 149). أما ستيوارت هول فيرى أن الهوية إنتاج متواصل لا يكتمل أبدا، وهي دائما في تشكّل (هول، 2005، صفحة 55). وفي السياق الاستعماري وما بعد الكولونيالي يصف هومي بابا الهوية المتشظية بوصفها موقفا بينيا يعيش فيه الفرد بين عالمين دون أن ينتمي إلى أي منهما بالكامل، ويسمّي هذا الفضاء بالمكان الثالث حيث تتفاوض الهويات المختلفة وتتصارع (بابا، 2004، صفحة 103). وتقترب هذه المقولة من المشهد الذي يلخص فيه الأحول فلسفته الخاصة في الهوية حين يقول لضابط أمنه المحقّق: "قد أبدو لك أحول، أما عند الآخرين فأعور، وعند آخرين حكيم. لن أكون مختلفا عنك، ولكن إذا أردت العيش، تجرّد من ذلك الجلاّد الذي يشاطرك الروح والجسد" (جابر، 2025، صفحة 60)، في إعلان متقدّم بأن الهوية تعدّد منظورات يحفظ تماسكه الداخلي من يعرف كيف يتجرّد من الجلاّد الذي يسكن نفسه.

تجلت في الرواية العربية ظاهرة تشظّي الهوية بصور متعددة في الأعمال التي عالجت فترات التحولات الكبرى والحروب والقمع السياسي (فرج، 2007، صفحة 75) غير أن آل جابر تفرد بتقديم هذه الظاهرة في بعدها الفلسفي العميق عبر شخصية بطل يواجه التشظّي بالتأمل الحكيم والسخرية الرصينة.

- الصراع الفكري في الرواية: ما وراء الأيديولوجيا

يختلف الصراع الفكري في هذه الرواية عن المواجهة التقليدية بين الأفكار المتعارضة. إذ نجده تجسيدا سرديا لمعاناة الشخصيات مع أسئلة وجودية كبرى: الحرية، الموت، الولاء، الخيانة، الحب، المنفى، في ظل نظام شمولي يسعى إلى فرض هوية واحدة قسرية. فيتحول الصراع الفكري في مواجهته إلى فعل مقاومة، بل قد يبلغ حد الانتحار البطيء بالوعي. شخصية عليّ تموت بسبب أفكارها وقراءاتها لا بسبب أفعالها وتوجهاتها المجردة، ويصرّح الأحول في لحظة يأس عميق بأن "جريمتنا هي الكتب والكتابة، كل ما حدث منتم إلى لعنة الوعي، الذي أوصلنا إلى التشردّ والموت" (جابر، 2025، صفحة 90).

وقد شهدت الرواية العراقية في زمن الحرب العراقية-الإيرانية بروز أعمال أدبية حملت مرارة الواقع وتداعياته على الإنسان، وثقت كل مافي المجال السياسي وتجاوزته إلى عكس تحولات المجتمع وتفكك قيمه، تنتمي رواية الأحول إلى هذا التيار لكنها تمتاز بأنها تقدّم شخصية محورية توصف بالحكمة الهادئة والوعي المسخر لكل المصادر الثقافية المتاحة من الفلسفة إلى كلیلة ودمنة، ومن الإمام علي إلى تولستوي ودوستوفسكي.

-السياق التاريخي: عراق الثمانينيات

تتماز الرواية بسياق تاريخي بالغ الخصوصية فالعراق في حقبة الثمانينيات حيث تتشابك الحرب العراقية-الإيرانية، وقمع النظام البعثي الشامل لكل أشكال المعارضة السياسية (ابراهيم، 2012، صفحة 6). كانت السلطة تستهدف في آن واحد اليسار الماركسي والإسلاميين الشيعة، فاعتقل الشيوعيون بتهمة الفكر الماركسي وحيازة الكتب (العلاق، 2024، صفحة 500) مثل كتاب (1984) لجورج أورويل، واعتقل الإسلاميون بتهمة ارتياد المساجد وحيازة الكتب الدينية، وهذه الازدواجية القمعية تكشف عن طبيعة نظام يخشى الوعي بكل أشكاله سواء جاء من اليسار أم من الدين. وقد هجر هذا الواقع موجات من الشباب

العراقي ومن بقي في الداخل خاظر بحياته، ومن هرب عاش غربة المنفى. وبين البقاء والرحيل والخوف والكرامة والانتماء المتعدد والهوية الواحدة التي يفرضها السيف عاشت الهوية العراقية أشد لحظات تشظّيها قسوة وعمقا. وتغلق الرواية قوسها التاريخي بإشارة دقيقة إلى تاريخ 1988/8/8، يوم توقّف الحرب، حين يصف الأحول البهجة المجنونة التي عمّت الشوارع، بينما هو يبحث عبثا بين الحشود عن أخيه عليّ وصديقه خليل وحبيبته سميرة، متسائلا: "من يملك القدرة على إعادة من أحببتهم وفقدتهم؟" (جابر، 2025، صفحة 125)، فيخلص إلى أن نهاية الحرب لم تكن نهاية للتشظّي الذي خلّفته في الأرواح.

مظاهر تشظّي الهوية في الرواية

المحور الأول: تشظّي الهوية داخل الأسرة (نموذج بيت شنیشل)

تقدّم الرواية عائلة الحاج شنیشل (أبو سعدون) في مدينة الثورة نموذجا حيا لتشظّي الهوية داخل النسيج العائلي الواحد فهذه العائلة التي يجمعها الفقر وضيق الحال وسقف واحد، تأوي في الوقت ذاته هويات متباينة ومتصارعة لا يكاد المرء يصدّق أنها تتعايش تحت سقف واحد. وهي بذلك نموذج مصغر للمجتمع العراقي بأسره في تلك الحقبة.

الأب شنیشل: جيل الخوف

يجسّد الأب شنیشل نموذج جيل كامل يؤمن بأن الصمت هو الحل الوحيد للنجاة حيث يرتجف صوته من بطش السلطة، لكنه يحاول حماية أبنائه بطريقته الخائفة. يقول في لحظة مكاشفة نادرة: "كيف لأعزل أن يتحدّى دولة بالمجرفة؟ هذا هو الانتحار بأم عينه" (جابر، 2025، صفحة 14)، هذه الجملة تلخّص هوية جيل أكثر من أن تعبّر عن موقف فرد، يدرك هذا الجيل عجزه أمام آلة القمع فيتخذ من الصمت والحذر وسيلة للبقاء. لكنه يدفع ثمنا مضمنا لهذا الخيار، يرى أبنائه يحترقون واحدا تلو الآخر عاجزا عن أي فعل. ومع ذلك يكشف النص عن لحظات نادرة يتجلّى فيها وعي الأب العميق، إذ يقول وهو يحدّق في حكيم: "وحدّهما عينا الأحول تعرفان الحقيقة" (جابر، 2025، صفحة 49)، ويبلغ هذا الاعتراف ذروته في مشهد لاحق، حين يطلب الأب من حكيم أن يبقى معه وحده وقت الخطر، معترفا أمام نفسه: "يبدو أنه لم يكن أحد من أبنائي أذكى من الأحول الذي لم يسبق له أن رأيته متسرعا" (جابر، 2025، صفحة 91)، جملة بالغة الدلالة، إذ يصف الأب ابنه بصيغة الغائب وكأنه يراه لأول

مرة، في إقرار متأخر بأن الهوية الحقيقية لحكيم ظلت محجوبة عنه طوال السنين خلف صفة الأحوال الظاهرة.

علي: الهوية اليسارية الثورية

يمثل عليّ الابن الأكبر الهوية اليسارية المفعمة بثقافة النضال. يستشهد كثيرا بجيفارا ويحول غرفة نومه إلى مكتبة مبعثرة تحتوي على كتب مارسيل بروسست وجيمس جويس وتولستوي ودوستوفسكي. فهوية عليّ مبنية على القراءة والفكر قبل أي شيء آخر، وهذا بالضبط ما يجعل منها هوية مهددة في زمن نظام يحظر الكتب. إنه يدرك خطورة موقفه ويختاره مع ذلك، وهو ما يشكل نوعا من التشظي الذاتي: أن تعرف طريقك إلى الهاوية وتسير فيه واعيا. تجسد نهاية عليّ المآل الأكثر مأساوية لهذا النوع من الهوية ألا وهو الحكم بالإعدام "حكمت المحكمة حضوريا على عليّ بالإعدام" (جابر، 2025، صفحة 108)، وحين يأتي خبر مقتله وهو يواجه مصيره مختارا طريق المقاومة لا الخضوع، يتحول الفرد إلى رمز، والهوية الشخصية إلى موروث جماعي. يقول حسين جبيري عند البكاء على عليّ: "عليّ خوية كافي موتنتي" في هذه العبارة الجنوبية الشعبية تكثيف بالغ لمعنى تشظي الهوية: أن يموت الإنسان مرتين، مرة بخروج الروح من الجسد ومرة بالفقد.

كريم: الاندفاع الشيوعي

يحمل كريم الموقف الشيوعي الأكثر حدة وجرأة في التعبير عن رفض النظام إذ يؤمن بالفكرة الشيوعية إيمانا يكاد يبلغ حد التبجيل. وهو الأقل خبرة بمكر السلطة والأكثر صدقا في تعبيره حتى حين يكون هذا الصدق خطرا. حين يضطر إلى النفي في لبنان يكتب رسالة مؤثرة لأهله: "أريد أن أحتضنكم كما يحتضن الطفل أمه... القلب يبكي... البعد جعل مني رساما للشقاء" (جابر، 2025، صفحة 52). تعبر هذه الرسالة عن أزمة هوية حقيقية فهو يكتشف في المنفى أن هويته مرتبطة ارتباطا عضويا بالمكان والناس والجدران التي يشترك إلى رائحتها.

طالب: الهوية القومية المهادنة

يتحول طالب الأخ القومي إلى موظف في النظام نراه يوبّخ العائلة قائلا في مشهد بالغ الدلالة: "أخشى أنك في يوم من الأيام تخسر الجميع، بسبب تعاطفكم مع شطحات كريم الشيوعية،

وجنون الأحوال الديني، وخطورة عليّ التي ليس لها مبرر" (جابر، 2025، صفحة 56) تكشف هذه العبارة أكثر من معنى فيرى طالب إخوته من خلال تصنيفات أيديولوجية وهو ما يعني أن السلطة نجحت في إعادة هيكلة وعيه حتى تجاه أسرته. وهنا يبلغ التشظي درجة الأخطر حين يغدو الفرد أداة لتفكيك هوية الجماعة التي ينتمي إليها. ومع ذلك فإن طالب هو الذي يتوسط لإخراج حكيم من السجن (جابر، 2025، صفحة 60)، وهو ما يذكر بأن الانتماء القومي المهادن ماهو إلا موقف مزدوج يحمل في داخله تناقضه الخاص.

الأحوال وانتماءه الديني: تشظي داخل التشظي

من أدق المشاهد التي ترصد التشظي الهوياتي داخل الأسرة الواحدة تعليق الجار حسين جبري، حين يسمع أذان الحاج شنيشل في باحة البيت فيقول: "يؤذن الحاج شنيشل، ونصف أولاده لا يؤمنون بالجامع والكنيسة والمعبّد، إلا الأحوال، فهذا طفرة القدر ببيت ماركسي، وينتمي إلى جذوره الدينية" (جابر، 2025، صفحة 79)، يلخص هذا التعليق بدقة موقع الأحوال الفريد فهو الوحيد بين إخوته الذي يحافظ على الانتماء الديني الموروث وسط بيت تتقاسمه الماركسية والقومية، وهو بذلك تشظ داخل التشظي، فرد يحمل هوية مختلفة عن إخوته جميعاً، يكشف أن وحدة البيت لم تكن في وحدة الانتماء إنما في تعدّده المحتمل. تعدّ هذه الأسرة الصغيرة في حقيقتها مرآة مصغرة للمجتمع العراقي في تلك الحقبة فهو متعدد الانتماءات والتوجهات، لكنه يعيش في ظل سلطة تشترط الهوية الواحدة وتجرم ما سواها. وهكذا يغدو البيت -مع كل دفئه العائلي وطوقسه اليومية من شرب الشاي والأكل على الأرض وصنع الكلّجية- مسرحاً للتشظي الهوياتي قبل أن يكون فضاء للألفة. وهذا التوتر هو في صميم ما يريد الكاتب قوله: تسرب القمع إلى الفضاء الخاص الأكثر حميمية، ولم يكتف باختراق الفضاء العام.

المحور الثاني: الصراع الفكري وتشظي الهوية الأيديولوجية

لا تكتفي الرواية برصد التشظي الهوياتي على مستوى الانتماءات السياسية، حيث تنفذ إلى عمق الوعي الفكري لشخصياتها لتقدّم نقاشات فلسفية رفيعة تكشف عن جذور الأزمة الهوياتية. فالحوارات الطويلة التي تدور بين عليّ وكريم وحكيم حول الفلسفة والإمام عليّ(ع)

ونيكولاى بيرديائيف والمانوية وتولستوي في جوهرها خطاب هوياتي فكل شخصية تعرّف نفسها وتبرّر وجودها من خلال ما تقول وتؤمن به.

أ. الفكر الحر في مواجهة الجمود الأيديولوجي

يقول عليّ في حوار فلسفي مع أخيه كريم حول كتاب فلسفة الروح الحرة للفيلسوف الروسي نيكولاى بيرديائيف: "حل القرار يكمن في تفسير القرار... الفكرة التي لا تثير التساؤل والتأويل تعتبر فكرة جامدة معرفياً" (جابر، 2025، صفحة 18). تلخص هذه الجملة فلسفة الرواية بأسرها إن الهوية الحقة تبنى على التساؤل المتجدد، والشخصيات التي تعيش هوية تساؤلية -عليّ وكريم وحكيم- هي بالضبط التي تهددها السلطة، لأن السلطة الاستبدادية تكره السؤال قبل كل شيء. وفي مشهد آخر بالغ الدلالة يقرأ حكيم (الحرب والسلام) لتولستوي ليجد فيه صدى واقعه: "إنني أذهب إلى الحرب؛ لأن الحياة التي أحيّاها لا تناسبني، ونحن هنا نقاتل من دون أن نفكر" (جابر، 2025، صفحة 50). يجسّد هذا التناص بين الرواية الروسية والواقع العراقي وعي الأحوال المقارن فهو يدرك أن تجربته إنسانية عالمية، وأن بلدان متباعدتان يمكن أن تشتركا في محنة القمع والحرب بنفس القدر من القسوة. ويتكرّر هذا التناص الروسي في حوار سميرة الطويل مع حكيم حول رواية دوستوفسكي مذكرات من منزل الأموات، حين تستحضر مقولته الشهيرة: "لم يكن سجنه في سيبيريا وسط الأعمال الشاقة، كان سجنه الحقيقي في ذهنه، ففي الذهن يكون الناس إما أحراراً أو سجناء" (جابر، 2025، صفحة 71) تضيء هذه المقولة البعد الأعظم للهوية في الرواية: أن أسوأ أشكال التشظّي ما تفرضه السلطة من قيود خارجية وما يستبطنه الفرد من قيود داخلية يصنعها بنفسه. وهي إشارة مبكرة لما سيختبره الأحوال لاحقاً حين يتحدث عن الجلاد الذي يشاطرك الروح والجسد في مشهد التحقيق.

ب. ازدواجية السلطة في قمع الهوية

تكشف الرواية عن ازدواجية السلطة في قمع المعارضة بصورة تدهش بدقتها، إذ يعتقل النظام الإسلامي "بتهمة الصلاة والمسجد والكتب الدينية" (جابر، 2025، صفحة 27)، ويعتقل الشيوعي "بتهمة الفكر الماركسي والكتب الممنوعة مثل رواية 1984 للكاتب البريطاني جورج أورويل" (جابر، 2025، صفحة 27). لا يفرّق هذا النظام بين خصومه، يبتكر تهمة

لكل منهم. تفصح هذه الازدواجية القمع بأنه يستهدف الوعي ذاته، أي وعي، أيًا كان مصدره. ولعل في هذا المشهد يفسر سبب تشظّي الهوية العراقية في تلك الحقبة فحين تستهدف السلطة كل الهويات الفرعية في آن واحد، فإنها لم توحّد الناس حول هوية بديلة إنما فرغتهم من هوياتهم جميعا، فيجد الفرد نفسه في الفراغ المطلق، لا هوية اليسار تحميه ولا هوية الدين تسعفه. وهذا الفراغ هو بالضبط ما يعبر عنه حكيم في لحظة يأسه القصوى حين يقرّ بأن "جريمتنا هي الكتب والكتابة، كل ما حدث منتم إلى لعنة الوعي، الذي أوصلنا إلى التشرّد والموت" (جابر، 2025، صفحة 90)، فصار الكتاب في ذاته تهمة كافية.

ج. الفلسفة والكتاب: مقاومة التشظّي بالمعرفة

يعد الكتاب في هذه الرواية عنصرا من صميم الهوية، فالسلطة التي تحظر رواية 1984 وكتب الإمام عليّ(ع)، تدرك جيدا أن القراءة تشكّل هويات مقاومة. والأحول الذي يلجّ على اقتناء كتاب الإمام عليّ(ع) من المهد إلى اللحد، ويقرأ تولستوي ليلة رحيل عليّ، ويحفظ كلية ودمنة، يؤسّس هويته على قاعدة معرفية متينة تصمد أمام عواصف التشظّي. وهنا يشير آل جابر إلى حقيقة عميقة بأن هوية الإنسان التي تصنعها الكتب أشدّ مقاومة للكسر من الهوية التي تصنعها الانتماءات الحزبية وحدها.

المحور الثالث: تشظّي الهوية الطبقية والاجتماعية

تعد رواية الاحول في جوهرها رواية طبقية بامتياز فمدينة الثورة بإنسانها الكادح وبيوتها المتلاصقة وشوارعها المكتظة ليست خلفية ديكورية أذ وظفها آل جابر فضاء هوياتيا حاسما. فيشكل الانتماء إلى هذا المكان الهوية، ويحدّد كيف ينظر الآخرون إلى أصحابها. ومن أكثر المشاهد كثافة في الرواية المشهد الذي يطل فيه الأحول من بيت مدينة الثورة على بيت الأستاذ صبر مجيد، بيت "فسيح يعادل ثلاثة منازل عادية، مع النوافذ الكثيرة، كانت الجدران مطلية باللون السمائي الفاتح ومزينة بالرسومات والأثاث لم أشاهد مثله إلا في السينما أو عند قراءة الروايات الفرنسية". (جابر، 2025، صفحة 54). يجسّد آل جابر في نصه الهوية الطبقية من خلال معيار الرؤية لا الوصف المباشر الأحول يرى البيت بعيني من لم يعرف مثل هذا الثراء، إلا في السينما والروايات الفرنسية، فيغدو الفضاء المادي مرآة لبعد الهويتين لا مجرد فارق في المساحة والألوان.

أ. الهوية الطبقيّة في مواجهة الإقطاع الصغير

يتجلى التشطّي الطبقي بأقوى صورته في مشهد العمل الذي يلتقي فيه الأحول برجل ثري ذي بشرة حمراء يعاملهم باحتقار صارخ، يمتلئ المشهد بالدلالات الهويةاتيّة العميقة: "من سمح لكم بالجلوس على هذه الكراسي، أنتم مجرد خدم في حضرتي، لا تستحقون الجلوس على الأرض، أنتم عبث وشغب وهمج" (جابر، 2025، صفحة 33)، ردّ الأحول على هذه الإهانة الطبقيّة كان إعلاناً هويّاتياً مركّباً ومتعدد الطبقات الزمنية والحضارية: "أُتعرّف لماذا نحن عبث، شغب، همج؟ لأننا نقتل من أجل كرامتنا، ونكمل حياتنا مرفوعي الرأس... نحن نسري من مياه الأبسو، من ذلك المقدس السومري" (جابر، 2025، صفحة 33)، يكشف هذا الردّ الاستثنائي عن بنية هويّاتية معقّدة عند شخصية الأحول فهو يستند إلى هوية حضارية عميقة (السومريون، الأبسو) تتجاوز الواقع الطبقي الراهن وتؤسس لانتماء أوسع وأعمق. إذ يعدّ الأبسو في الميثولوجيا السومرية مصدر المياه والبحيرات والبحار والأنهار والجداول والينابيع، وهو ماء مقدس عند السومريين. يعيد الأحول بهذا تعريف هويّته من خلال انتماؤه الحضاري التاريخي الأصيل.

ب. حديقة الأثرياء وهوية الفلاح

يقدم آل جابر علاقة الأحول بالحدائق على أنها علاقة هويّاتية أصيلة، فهي ليست عمل يدوي يؤدّيه الكادح للأثرياء فقط، فحين يدخل حديقة صبر مجيد يضفي عليها انتظاماً جمالياً يذهل صاحبها، وبهذا يعيد الأحول تعريف هوية الفلاح فلا يراه عبداً إنما شريكاً للطبيعة في إنتاج الجمال. وهو يصرّح بذلك في حوارهِ الأول مع سميرة حين تقول له إنه الورد من ممتلكاتها وعليه الاعتناء به، فيردّ بثقة: "الورد ملك الطبيعة، كما هو حال رجل أعمى لا يرى من أمامه غير أن إحساسه عابر للحظة الخيال، في سر الورد حرية غير خاضعة للملكية والاستحواذ، الحب وحده كالسيل الهادر يصنع منك عاشقة للورد" (جابر، 2025، صفحة 57)، رافضاً منطق الملكية من أساسه، مستعيناً بصورة الأعمى الذي يعجز عن الرؤية لكنه يدرك بالإحساس ما يفوت المبصر وهذه إشارة ضمنية إلى أن الحواس الباطنة أصدق من الحياة الظاهرة. ثم ينتقل إلى تأسيس ثنائية بين الملكية والحرية فالورد في جوهره حرّ لا يخضع للاستحواذ، وما يربط الإنسان به ليس سند تملك إنما فعل حب. وفي هذا انقلاب هويّاتي

صريح فالكادح الذي جاء لخدم حديقة الثري يعيد تعريف العلاقة بالجمال بعدّها علاقة إدراك لا تملّك، ويضع نفسه -الفلاح العارف بسر الورد- في موقع أعلى معرفياً من مالكته التي لا تعرفه إلا بالحيازة.

المحور الرابع: تشظّي الهوية بين الولاء والخيانة

تقدّم الرواية نماذج متعددة للهوية المنهارة التي تنقلب على ذاتها تحت ضغط النظام الاستبدادي ولعل أعمقها النموذج الذي يجمع بين الخيانة والضمير في شخصية واحدة ألا وهي شخصية محمود (ابن عمة الأب) الذي يعمل في تنفيذ أحكام الإعدام.

أ. أبو عزيز والجار اليتيم: المخبرون

يصف حكيم الجار (أبا عزيز) الذي اتضح أنه مخبر سري لمديرية الأمن، بالكلب الجائع (جابر، 2025، صفحة 25). والجار اليتيم الشاب الذي كان حكيم يعطف عليه بسبب وضعه الصعب، حتى جنّده السلطة في التجسس، يتحوّل وصفه كاشفاً: "أصبح قبيحا بمعنى الكلمة، وتورّم خذاه بالقبح الفجّ الذي يجعلك تؤمن أن وراء هذا الوجه القبيح شرا وفسادا يملآن الأرض. كان يزود البعث بالتقارير اليومية عن المنتمين كلهم لمعارضة صدام" (جابر، 2025، صفحة 35). فيرى إن الخيانة تشوه الوجه وتبدّل ملامحه، كأن الهوية المنشطية تجد تعبيرها الحرفي في التشوّه الجسدي.

ب. محمود السجّان: الضمير المنقلب على نفسه

يقدّم محمود (ابن عمة الأب) الذي يعمل في وظيفة أقلّ قساوة من الإعدامات كما يصف نفسه ساخرا، نموذجا أكثر تعقيدا للهوية المنشطرة. فهو يساعد الأسرة على رؤية علي في السجن من باب الواجب العائلي، ويظهر في حوارهِ ندما حقيقيا: "لدي انطباع بأنني مذنب قبالة ابن عمّتي العزيزة" (جابر، 2025، صفحة 96). ينتهي هذا الانشطار بين الواجب الوظيفي والضمير الإنساني نهايةً مأساوية فبعد إعدام عليّ بيومين ينتحر محمود "اختار شنق نفسه كما كان يفعل مع المحكومين" (جابر، 2025، صفحة 109). يستحضر الأحوال هذا المشهد بالتناص مع شخصية راسكولينكوف في الجريمة والعقاب لدوستويفسكي، إذ يجسّد أقصى درجات تشظّي الهوية حين ينقلب الجلال على نفسه لأنه عجز عن التعايش مع ما فعلت يداه، فيختار العقوبة التي طالما نفّذها بحق غيره. ويعلّق الأحوال بمرارة فلسفية: "محمود كان أشجع

من راسكولينكوف، إذ عاقب نفسه ليتخلص من عبودية جائحة على دكة الكثيرين" (جابر، 2025، صفحة 110). في مقابل هذه النماذج يقدم الأحوال موقفا مغايرا حين يكشف أمر تجسس الجار اليتيم فلا يستسلم لردّ الفعل الانفعالي الطائش، حيث يوجّه عليا بحكمة هادئة: "هو يريد قتلك، وأنت تهين له الصفقة بهذه العصبية المفرطة التي تجعل العقل مقيدا بالدوران" (جابر، 2025، صفحة 35)، يتجلى هنا الفارق بين هوية متمالكة تواجه أزماتها بالفهم، وهوية متشظية تواجهها بالانفجار أو بالانهيار الداخلي كما حدث لمحمود.

المحور الخامس: تشظي الهوية في الحب — قصة حكيم وسميرة

تتخذ قصة الحب في الرواية بعدا هوياتيا عميقا ومتعدد الطبقات فيقع حكيم الأحوال ابن مدينة الثورة الكادح في حب سميرة ابنة الأستاذ صبر مجيد المدير العام المتقاعد الشقراء ذات العينين الزرقاوين.

أ. اللقاء الأول: الكرامة في مواجهة الفارق الطبقي

يصف الأحوال لقاءه الأول بسميرة بلغة تجمع بين الإعجاب والوعي الطبقي الحاد: "لم أجروا على النظر إليها جهارا نهارا بعيني الحولاء، إنما قلبي كان يصف الجمال من أوسع أبواب الدهشة" (جابر، 2025، صفحة 55). ومع ذلك حين تتحاده قائلة: لا تكن أفلاطون أو سقراط الجديد يردّ بثقة عالية: "هذه علاقة حب بين الورد والفلاح، ومن حسن الحظ أن الورد لا يعرف الخيانة والخذلان، عكس البشر" (جابر، 2025، صفحة 58). يحمل هذا الردّ طبقتين دلالتين متشابكتين: الأولى تأسيس العلاقة على استعارة الورد والفلاح بديلاً عن منطق الطبقة، فالفلاح يقف أمام الورد موقف من يعرف سرّه ويحيي جماله، وفي هذا رفض ضمني للتراتبية الاجتماعية التي تفرضها سميرة حين تستحضر أفلاطون وسقراط تحدياً له. والثانية أن جملة "الورد لا يعرف الخيانة والخذلان عكس البشر" تنزلق من الاستعارة الجمالية إلى تعليق مرّ على العلاقات الإنسانية، كأن الأحوال يدرك مسبقاً هشاشة ما ينشأ بينهما ويبنّي حوله سياجا يقيه من الانكسار فالكرامة هنا تتجلى في اليقين الهادئ بقيمة الذات، وفي القدرة على تحويل الفارق الطبقي إلى حوار جمالي يقف فيه الأحوال نداً لا تابعاً.

ب. الاعتراف الصريح والوعي الطبقي الحاد

يسجل الأحوال اعترافه الداخلي بوضوح لافت في أحد المشاهد الأكثر صدقا في الرواية، حين تصرّح سميرة بحبها قبل سفرها للعلاج: "أنا أيضا أحبها، ولكنني لا أستطيع أن أقول ذلك بتلك الطريقة الحاذقة، ولا أستطيع أن أجيب" (جابر، 2025، صفحة 116). ثم يفصل لاحقا جذر هذا العجز: "شعرت بالحزن الشديد، لأنني كنت أكذب على مشاعري طوال الفترة مع سميرة صبر؛ لأنها تنتمي إلى طبقة أخرى بعيدة عن فقرنا المدقع، منذ طفولتنا ونحن نبحث عن وسيلة أو ثغرة نشعر من خلالها ببصيص أمل لمعانقة صدى الحب، إذا كان ممكنا إلينا نحن أبناء القصب" (جابر، 2025، صفحة 116)، يصحح هذا المقطع أي قراءة مبسطة لقصة الحب بعدّها رومانسية عابرة فهي في جوهرها مواجهة الأحوال مع حدود هويته الطبقيّة واعترافه الصادق بأن الكذب على المشاعر كان آلية دفاع ضد استحالة اجتماعية يعرف حجمها تماما. وتنتهي قصة الحب ولكن ليس كما قد يتوقّع من سرديات الحب المأساوية، إذ تنتهي بمصير أكثر إيلاما ومن نوع آخر حيث تسافر سميرة للعلاج من مرضها وتتزوج من طبيب في برلين ويبقى الأحوال وحيدا يتساءل في خاتمة الرواية: "من يملك القدرة على إعادة من أحببتهم وفقدتهم؟ انني وحدي في هذا العالم الواسع" (جابر، 2025، صفحة 125)، هذا المصير -أن تعيش من تحب حياة كاملة في مكان آخر مع إنسان آخر- هو شكل من تشظّي الهوية أفسى من الموت ففقد الإماكن هو ما يجعل الجرح مفتوحا بلا ختام.

المحور السادس: تشظّي الهوية بين المنفى والموت

تتصاعد حدة التشظّي الهوياتي في الرواية مع موجات المنفى والموت المتتالية فرحيل كريم إلى لبنان سرا يترجم التشظّي من مجرد أزمة داخلية إلى قطيعة جغرافية وجودية. ثم اعتقال خليل، ثم اختفاء عليّ وحكم الإعدام عليه، ثم انتحار محمود. كل هذه الأحداث تراكم طبقات التشظّي حتى يصبح الوجود في مدينة الثورة وجودا على حافة اليأس.

أ. الخوف من الموت والفلسفة

يجد الأحوال في مواجهة هذا كله الفلسفة ملاذا، إذ يقول في حوار مع عليّ حول الخوف من الموت: "الخوف من الموت متأصل في العقل والخيال معا... والفلسفة هي أسئلة بقيمة أعلى من الجواب" (جابر، 2025، صفحة 36). يعدّ هذا الموقف الفلسفي من الموت استراتيجية هوياتية حقيقية فتحوّل الخوف من عدو يشلّ إرادتك إلى مادة للتفكير تغني وعيك.

ب. الإعدام والنعي: الهوية الشخصية تتحوّل إلى رمز جماعي

يأتي حكم الإعدام على عليّ ليعلن إن للسلطة قدرة على محو الهوية نهائياً. وتصل الذروة التراجيدية في مشهد الجنازة حيث يصبح النعي كلمات محفورة على قبر في وادي السلام: "نعي الأخ كانت كلماته كلها محفورة على قبر في وادي السلام... يا جرحاً ثلماً بيوت الفقراء، يا شمساً أشرقت من خلف الظلام" (جابر، 2025، صفحة 120)، يتحوّل التشظّي الهوياتي هنا إلى رثاء جماعي فالشخصية الفردية (عليّ شنيشل) تذوب في رمز جماعي (الجرح الذي ثلماً بيوت الفقراء). وهذا التحوّل هو انتصار للهوية على الموت.

حكيم الأحوال (نموذج الهوية المقاومة للتشظّي)

-مشهد التحقيق: فلسفة الأسماء المتعددة

يمثّل مشهد التحقيق الأمني اللحظة الأكثر تكثيفاً لفلسفة الهوية في الرواية كلها. يستدعي الضابط حكيم مخاطباً إياه: "أيها الأعور أو الأحوال؟" (جابر، 2025، صفحة 60)، فيردّ بهدوء أسر: "هذه كلها مسميات خاطئة يا سيدي، أنا حكيم" (جابر، 2025، صفحة 60). يستفزّه الضابط بسؤال عن سبب كراهيته للتمثيل والفن والهدوء، فيجيب حكيم بإجابة فلسفية تلخّص رؤيته الكاملة للهوية: "هذا جزء منك يا سيدي، وليس كل ما عندك، فأنت تحب وتحب. قد أبدو لك أحول، أما عند الآخرين فأعور، وعند آخرين حكيم. لن أكون مختلفاً عنك، ولكن إذا أردت العيش، تجرّد من ذلك الجلال الذي يشاطرك الروح والجسد، استرخ عندما يمسك بك". (جابر، 2025، صفحة 60)، يعلن حكيم في هذا المشهد نظريته الخاصة في الهوية فالتسمية ليست الهوية، وأن كل ناظر يرى منك جانباً واحداً (أعور، أحول، حكيم) دون أن يرى الكل والأخطر من ذلك أن في داخل كل إنسان -بما فيهم الضابط القامع نفسه- جلاداً يشاطره الروح والجسد، وأن مفتاح النجاة هو الاسترخاء حين يمسك بك هذا الجلال الداخلي بدل الصراع العنيف معه. هذه الفلسفة هي التي تفسّر كيف يحافظ الأحوال على تماسكه النفسي وسط كل عوامل التشظّي المحيطة به: فهو يقاوم الهوية المفروضة عليه بإعادة تعريفها من موقع متعال يرى التعدد دون أن يتشظّي به.

- ثنائية الظاهر والباطن: الجسد والوعي

من أكثر الجوانب إبداعاً في الرواية توظيف صفة الحول البصرية بعدّها رمزا هوياتياً عميق الدلالة. فالأحول لا يرى بالعين الطبيعية المتعارف عليها، إذ يرى بطريقة مختلفة، طريقة تضلّل الظاهر وتنفذ إلى الباطن، يقرّ بذلك والده حين يقول: "وحدّهما عينا الأحول تعرفان الحقيقة" (جابر، 2025، صفحة 49)، ويقرّ به حكيم نفسه حين يجيب بصوت هادئ: "يخشون عيوني التي تراهم على حقيقتهم بدقة" (جابر، 2025، صفحة 49). وحين تحاول قوات الأمن اعتقاله، ينقذه موظف يدعى غسان بشهادة لافتة: "بحثت في سجلاته فهو لم ينتم طوال حياته، يلقب بالأحول، كثير القراءة والسخرية كما هي سخرية سقراط الذكية، يعمل في الأشغال الحرفية" (جابر، 2025، صفحة 59). مشيراً إلى أن هويته ليست حزبية ولا أيديولوجية، فهي منحصرة بالقراءة وسخريته الذكية وعمله الحرفي، هوية مركّبة لا تناسب خانة واحدة في سجل الأمن، وهذا ما ينجيه.

-الفلسفة والقراءة: الهوية المصنوعة من الكلمات

يمتلك حكيم الأحول مكتبة لا تناسب وضعه الطبقي الظاهر من كلفة ودمنة، وكتاب الإمام علي من المهد إلى اللحد، ورواية الحرب والسلام لتولستوي، وكذلك رواية منزل الأموات لدوستوفسكي، وكتب الفلسفة الأبيقورية، ومباحث عن الغنوصية والمانوية. هذه المكتبة المتنوعة هي في الحقيقة خريطة هويته الحقيقية: فهو لا ينتمي إلى منظومة فكرية واحدة إنما يشرب من جميع الآبار.

-السخرية الحكيمة: درع الهوية

تميّز السخرية شخصية الأحول وتجعلها فريدة في عالم الرواية. حتى في لحظات الألم الأشد يحتفظ الأحول بسخريته. حين تسأله أمه عن لبنان حيث نفي كريم وهل فيها بشر يجيب: "نعم بشر، وأجمل نساء الأرض هناك، حوريات هاربات من الجنة، وليس من البحر الأبيض المتوسط". فيوبّخه علي على هذا الوصف، لكن الأحول يدرك ما لا يدركه عليّ فالأم تحتاج إلى لمسة خفيفة تعيدها من حافة اليأس.

-الكرامة: الخيط الجامع لهوية الأحول

تقدّم الرواية الكرامة بعدّها العنصر الأعرق في هوية الأحول، والأكثر مقاومة للتشظّي. ففي كل مواقف المحورية -مع الرجل ذي البشرة الحمراء، مع سلطة الأمن، مع سميرة- يثبت الأحول أن الكرامة هي جوهر الهوية الإنسانية التي لا تنزع.

التقنيات السردية وتجسيد التشظّي

1. الراوي الشاهد: الأحول يروي نفسه

تعتمد الرواية على ضمير المتكلم في جزء كبير منها، إذ يروي الأحول حكايته بنفسه. وحين يروي الأحول نفسه فإنّه يمارس فعل إثبات الهوية بنفسه لا عبر عيون الآخرين. وهذا في حد ذاته مقاومة للتشظّي: السلطة تريد تعريفه من الخارج (أحول متمرّد مشتبه به)، لكنه يعرف نفسه من الداخل (حكيم، القارئ، محب الورد، الساخر الحكيم).

2. الحوار الفلسفي: بناء الهوية في المحادثة

تحتلّ الحوارات الفلسفية الطويلة في الرواية مساحة واسعة غير معهودة في الروايات العربية التقليدية. وهذا الاختيار الأسلوبي هو تعبير عن طبيعة الهوية التي يقدّمها الكاتب: هوية تبنى في الحوار والجدل والتساؤل، لا في الأحكام الجاهزة والانتماءات المعلّبة.

3. التناص الثقافي: الهوية المتعددة الروافد

يوظّف الكاتب التناص الثقافي توظيفاً ذكياً لمعالجة إشكالية الهوية فاستحضار الأسطورة السومرية (الأبسو) والتراث الإسلامي (الإمام عليّ) وكليلة ودمنة والفلسفة والأدب الروسي (تولستوي، دوستوفسكي) في نص واحد هو في حد ذاته إعلان عن هوية مركّبة ومتعددة الروافد.

4. الفضاء المكاني: المدينة بوصفها هوية

تقدّم الرواية مدينة الثورة ببغداد بعدّها فضاء هوياتياً بامتياز، الطرق والأزقة ومقاهي شارع الرشيد ومقهى حسن عجمي كل هذه الأماكن تحمل ذاكرة هوياتية ثرية. ويبين غياب هذه الأماكن عند المنفيين (كريم في لبنان) أن المكان جزء لا يتجزأ من الهوية.

الخاتمة والنتائج

أثبتت هذه الدراسة أن رواية الأحول لمهدي آل جابر تقدّم نموذجاً أدبياً نادراً في معالجة ظاهرة تشظّي الهوية. تنفذ الرواية إلى عمق الوعي الشخصي لشخصياتها لتقدّم الهوية مسرحاً

داخليا تتصارع فيه انتماءات متعددة ومتباينة في ظل نظام استبدادي يستهدف هذه الانتماءات جميعا.

يمكن إجمال أبرز نتائج البحث فيما يلي:

تقدّم الرواية تشظّي الهوية بعدّه ظاهرة متعددة المستويات تشمل الهوية السياسية (اليسار والإسلاميون والبعثيون)، والهوية الطبقية (الكادحون أمام أصحاب السلطة والمال)، والهوية العائلية (تناقض الانتماءات داخل الأسرة الواحدة، بما فيها التشظّي الديني الذي يجعل الأحول وحده حامل الإرث الديني وسط بيت يساري وقومي)، والهوية الوجودية (سؤال الكرامة والمعنى في مواجهة القمع والموت).

يقدم مشهد التحقيق الأمني فلسفة هوياتية مكتملة على لسان الأحول نفسه فحواها: أن الهوية تعدّد منظورات لا تسمية واحدة، وأن مقاومة التشظّي تبدأ من التجردّ من الجلال الذي يسكن نفس كل إنسان قبل أي جلال خارجي.

تجسّد شخصية محمود السجّان أقصى تجليات الهوية المنشطرة بين الواجب والضمير، وتنتهي بانتحاره تكفيرا عن دور أدّاه قسرا أو اختيارا، في تناصّ واع مع راسكولنيكوف الدوستويفسكي.

تعيد قراءة قصة الحب بين حكيم وسميرة الاعتبار إلى وعي الأحول الطبقي الصريح وغير المجل: فهو يعترف بحبه وبكذبه على مشاعره في آن واحد، ومصير العلاقة رحيل سميرة وزواجها من آخر شكل من الفقد أشدّ تشظيا لأنه فقد بلا ختام.

توظّف الرواية تقنيات سردية متعددة لتجسيد التشظّي الهوياتي، أبرزها: ضمير المتكلم الذي يتيح للأحول تعريف هويته بنفسه، والحوار الفلسفي الطويل، والتناص الثقافي المتعدد الروافد، والفضاء المكاني الذي يجسّد الهوية الجماعية للمدينة والطبقة.

تختتم الرواية بتاريخ محدد (1988/8/8، نهاية الحرب العراقية-الإيرانية)، في إشارة إلى أن نهاية الحرب الخارجية لم تكن نهاية للتشظّي الداخلي الذي خلفته في الأرواح والهويات، فالأحول يبقى وحيدا يبحث عن هدنة مع القدر لم تحقّقها هدنة الحرب نفسها.

ويبقى الأحول في نهاية المطاف استعارة كبرى للمثقف العراقي الذي استطاع رغم كل شيء أن يحافظ على وعيه وإنسانيته وسخريته في أقسى الظروف. إنه يجيب بطريقته الخاصة عن

السؤال الذي طرحته الرواية منذ البداية: كيف يظل الإنسان إنساناً وهو يقصف من الخارج ويراقب من الداخل؟ الجواب: بالكلمة والكرامة والبصيرة النافذة -حتى لو جاءت هذه البصيرة من عينين حوليين.

مراجع

اسراء حسين. (2017). التحولات السياسية وأثرها في أزمة الهوية وتأرجحها في رواية عشاق وفوتوغراف وأزمة. *السرور والهوية*. بغداد: جامعة المستنصرية كلية الاداب. جيمس اي كوتيه، و تشارلز جي ليفين. (2021). *تكوين الهوية والشباب والتنمية*. دار الكتاب التربوي للنشر والتوزيع.

حسن خلف هاشم العلق. (15 10، 2024). معالم الحركة الفكرية في العراق 1932/ 1958 الفكر السياسي الاشتراكي انموذجا. *مجلة مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة*، صفحة 500. HYPERLINK

"https://doi.org/https://doi.org/10.36322/jksc.175(c).18596" \t "_blank"

[https://doi.org/https://doi.org/10.36322/jksc.175\(c\).18596](https://doi.org/https://doi.org/10.36322/jksc.175(c).18596)

زينة حمزة شاكر. (1 10، 2020). صراع الهوية في الرواية العراقية: رواية الحفيدة الامريكية انموذجا. *مجلة بابل للعلوم الانسانية*، الصفحات 1-10. ستيوارت هول. (2005). *الهوية الثقافية وما بعد الكولونيالية*. المركز القومي للترجمة. سلام ابراهيم. (2012). *الرواية العراقية: رصد الخراب العراقي في أزمان الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف*. المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات. ماهر ضبع. (2006). *العولمة وقضايا الهوية الثقافية*. المجلس الاعلى للثقافة. مهدي آل جابر. (2025). *الأحول*. بغداد: دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع. نورة محمد فرج. (2007). *ارتباكات الهوية: اسئلة الهوية والاستشراق في الرواية العربية*. المركز الثقافي العراقي. هومي بابا. (2004). *موقع الثقافة*. المشروع القومي للترجمة.

